النقد المنفتح من النظرية إلى الممارسة:
التركيب المعرفي وأنثروبولوجيا القرب في قراءة وزان

عبد العزيز الطويل
الباحث في سلك الماستر
ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات
جامعة محمد الخامس بالرباط
المملكة المغربية

المستخلص:

يسعى هذا المقال إلى قراءة مفهوم «النقد المنفتح» في المشروع الفكري لعبد الرحيم العطري، ليس باعتباره مجرد موقف نقدي أو شعار منهجي، وإنما بوصفه أفقًا معرفيًا يقتضي الانفتاح على تعدد المقاربات والسياقات والمناهج، والانتقال من التفسير الأحادي للظاهرة الإنسانية إلى محاولة تركيبية تستحضر أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والرمزية والتاريخية.

وينطلق المقال من مساءلة العلاقة بين النقد المنفتح ومفاهيم التركيب والتأويل والسيلقية والهجنة المعرفية والإثنوغرافيا متعددة المواقع والانعكاسية المنهجية، قبل أن ينتقل إلى اختبار هذه المبادئ في تجربة أنثروبولوجيا القرب بمدينة وزان. ويقترح المقال أن دراسة القريب لا تقل تعقيدًا عن دراسة البعيد، بل تضع الباحث أمام مفارقة منهجية تتمثل في ضرورة تحويل المألوف إلى سؤال، ومساءلة موقع الباحث نفسه داخل المجال الذي ينتمي إليه.

ومن خلال الحرفة والسوق والانتقال من الورشة إلى الشلشة، ومن «البركة» إلى العلامة، ومن السوق الواقعي إلى اقتصاد المنصات، يحاول المقال الكشف عن كيفية تداخل الاقتصادي والاجتماعي والديني والرمزي في إنتاج الممارسة ومعناها.

كما يستحضر التحولات التي تعرفها المدينة التاريخية وعلاقتها بالذاكرة والتراث والتأهيل الحضري، ليخلص إلى أن النقد المنفتح يجد قيمته الحقيقية حين يتحول من تصور نظري إلى ممارسة بحثية قادرة على الجمع بين المكتب والميدان، وبين النص والتجربة، وبين التاريخ والذاكرة، وبين الملاحظة والانعكاسية.

وبذلك تصبح وزان مجالًا تطبيقيًا لاختبار معرفة مركبة تنظر إلى الإنسان والمكان والحرفة والسوق بوصفها مستويات متداخلة داخل ظاهرة اجتماعية واحدة.

الكلمات المفتاحية: النقد المنفتح؛ التركيب المعرفي؛ أنثروبولوجيا القرب؛ الإثنوغرافيا متعددة المواقع؛ وزان.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

This article examines the concept of "open critique" in Abdellah El Atrary's intellectual project, not merely as a critical attitude or methodological slogan, but as an epistemological horizon that requires openness to multiple approaches, contexts, and methods. It argues that understanding human phenomena requires moving beyond unilateral explanations toward a synthetic approach capable of articulating their social, economic, cultural, symbolic, and historical dimensions.

The article explores the relationship between open critique and several interconnected concepts, including synthesis, interpretation, contextuality, epistemological hybridity, multi-sited ethnography, and methodological reflexivity. It then moves from this theoretical and methodological framework to an applied reading based on an anthropology of proximity in the city of Ouazzane, Morocco.

Studying the family, the article argues, is not necessarily easier than studying the distant or unfamiliar. On the contrary, proximity creates a methodological paradox: the researcher must transform what is familiar with into an object of inquiry while critically examining his or her own position within the field.

Through the study of craft, markets, the movement from workshop to screen, and the transformation from "blessing" and social reputation to branding and digital visibility, the article explores the interconnectedness of economic, social, religious, and symbolic dimensions in the production of practices and meanings. It also considers transformations affecting the historical city, its memory, heritage, and urban rehabilitation.

The article concludes that the real value of open critique emerges when it becomes a research practice capable of connecting desk-based research and fieldwork, text and experience, history and memory, observation and reflexivity. Ouazzane thus becomes an empirical field through which a composite anthropology can examine the city, craft, market, memory, and everyday life as interconnected dimensions of a complex social reality.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة

ربما لا يمكن فهم الظاهرة الإنسانية من خلال مدخل واحد، ولا يمكن اختزال الحياة الاجتماعية في تفسير منفرد مهما بلغت قدرته على الإحاطة بجانب من جوانبها. فالإنسان لا يعيش داخل مستوى واحد، ولا تتحرك ممارساته في فضاء معزول عن الاقتصاد والثقافة والتاريخ والدين والرموز والعلاقات الاجتماعية. ومن هنا تبرز الحاجة إلى معرفة قادرة على عبور الحدود التي تفصل بين التخصصات، وعلى النظر إلى الظاهرة في تركيبها بدل اختزالها في أحد مكوناتها.

ضمن هذا الأفق يمكن قراءة مفهوم «النقد المنفتح» في المشروع الفكري لعبد الرحيم العطري، أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة محمد الخامس بالرباط، ومنسق ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات، باعتباره محاولة للإحاطة بالظاهرة الإنسانية والاجتماعية من زواياها المتعددة وأبعادها المتشابكة، بما يسمح بلستحضار مختلف العوامل المؤثرة والمتحكمة فيها، وتجنب التفسيرات الأحادية الضيقة.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف يمكن أن تتحول هذه الدعوة إلى الانفتاح من موقف نظري إلى ممارسة فعلية في إنتاج المعرفة؟ وكيف يمكن أن نختبر هذا الانفتاح في الميدان، خصوصًا عندما يكون الميدان قريبًا من الباحث، بل هو المكان الذي ينتمي إليه؟

ينطلق هذا المقال من محاولة الإجابة عن هذين السؤالين من خلال محورين متكاملين: يتناول الأول الأسس النظرية والمنهجية للنقد المنفتح، وعلاقته بالتركيب وللتأويل والسيلقية والهجنة المعرفية والاثنوغرافيا متعددة المواقع والعمل المكتبي والانعكاسية. أما الثاني فيختبر هذه المبادئ في تجربة أنثروبولوجيا القرب بمدينة وزان، من خلال الحرفة والسوق والتحولات الرقمية والذاكرة والمدينة والتأهيل الحضري.

وبذلك لا يقدم المقال وزان بوصفها مجرد موضوع منفصل عن النقاش النظري، وإنما باعتبارها مجالًا لاختبار بعض الأسئلة التي يطرحها النقد المنفتح: كيف يمكن قراءة الظاهرة في تعدد أبعادها؟ كيف يمكن الانتقال من الملاحظة إلى للتأويل؟ وكيف يستطيع الباحث أن يدرس المكان الذي يعرفه دون أن يقع في أسر الألفة؟

المحور الأول: النقد المنفتح بوصفه أفقًا للتركيب المعرفي

المبحث الأول: من مقاومة الاختزال إلى محاولة التركيب

يقوم المشروع الفكري للأستاذ عبد الرحيم العطري، ضمن مفاهيم ودعائم أخرى، على مفهوم «النقد المنفتح»؛ وهو مفهوم يمكن النظر إليه باعتباره محاولة للإحاطة بالظاهرة الإنسانية والاجتماعية من زواياها المتعددة وأبعادها المتشابكة، بما يسمح باستحضار مختلف العوامل المؤثرة والمتحكمة فيها، وتجنب التفسيرات الأحادية الضيقة.

فالمواقف الإنسانية ليست ثابتة ولا مكتملة الدلالة؛ إنها تتسع وتتغير، وتحبل بالمعاني والقيم، وتظهر أحيانًا حيث لا تكون هناك علامات ظاهرة، كما تختفي أحيانًا أخرى حيث تبدو علامات زائفة. وقد تشتد أو تفتر، وتتقلب وتتبدل، وقد تتستر أو تختبئ خلف المظاهر والقشرة الخارجية للأشياء.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ومن هنا، فإن فهم الإنسان وفعلِه الاجتماعي لا يستقيم بالوقوف عند ما يظهر فقط، وإنما يقتضي الإنصات إلى ما يضمره الفعل من معانٍ، وما تختزنه الممارسة من دلالات قد لا تكون قابلة للالتقاط في القراءة السطحية.

وهكذا يستطيع النقد المنفتح أن يستوعب كثافة الحياة الإنسانية وتعقيد الظاهرة الاجتماعية، وبالتالي تعقيد الكائن الإنساني نفسه، كما يستطيع ملاحقة التحولات الدائمة التي تطرأ على نسيج الحياة، وعلى مظاهر وحدود الفعل الاجتماعي، وعلى المعاني والمعايير والقيم التي يضفيها الأفراد والجماعات على هذا الفعل.

إذا كان النقد المنفتح يقوم على مقاومة الاختزال، فإنه يرتبط، بالضرورة، بالسعي إلى أن يكون محاولة في التركيب une tentative de synthèse؛ أي تركيبًا بين مقاربات متعددة وزوايا نظر مختلفة، تتضافر فيما بينها لفهم الظاهرة الإنسانية في أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والنفسية والسياسية والتاريخية. غير أن التركيب هنا لا ينبغي أن يفهم باعتباره جمعًا ميكانيكيًا لمعارف متجاورة، وإنما باعتباره إعادة وصل لما قد تفصله الحدود التخصصية. فالمطلوب ليس أن نضع الاقتصاد بجانب الاجتماع، أو التاريخ بجانب الأنثروبولوجيا، وإنما أن نبحث عن العلاقات التي تجعل هذه المستويات متداخلة في إنتاج الظاهرة ومعناها.

ومن هذه الزاوية تبرز الهجنة المعرفية l'hybridité / l'hybridation بوصفها أفقًا يسمح بتداخل الحقول والمناهج والمفاهيم، بما يتناسب مع طبيعة الظاهرة الإنسانية المركبة. فكلما استعصت الظاهرة على الاختزال في تخصص واحد، أصبحت المعرفة نفسها مطالبة بقدر من الانفتاح والتلاقح والعبور بين الحدود.

وهكذا يقود النقد المنفتح إلى مقاربة متعددة الاختصاصات، تردم الفجوة القائمة بين الدرلسات الإنسانية والاجتماعية التي يخضع كل منها لقواعد اشتغال تخصصية قد تضيق أحيانًا عن استيعاب تعقيد الظاهرة الإنسانية.

لكن تعدد الاختصاصات وحده لا يكفي؛ إذ إن المعنى لا يوجد خارج السياق.

المبحث الثاني: السياق والتأويل وإنتاج المعنى

تكتسب السياقية، من هذه الزاوية، مكانة مركزية داخل هذا التصور. فالسياق ليس مجرد خلفية تتحرك داخلها الظاهرة، وإنما هو أحد الشروط التي تنتج معناها.

ويؤكد الأستاذ عبد الرحيم العطري أن «السياق كفيل بإنتاج المعنى»، وأن الواقعة الدينية أو الاقتصادية أو المجتمعية، في صغرها وكبرها، يتحدد معناها بالسياقات التي تتحرك فيها. ولذلك يدعو إلى الانتباه إلى «فعالية» السياقية contextualité في «النقد التأسيسي» و«الفهم التأويلي» و«النحت المعرفي»، باعتبارها مسالك مركزية في النقد المنفتح. [1]

وهنا يتجاوز النقد المنفتح مجرد تعدد زوايا النظر إلى الانتباه إلى تعدد السياقات التي تنتج المعنى. فالواقعة الواحدة قد تتخذ دلالات مختلفة بحسب الموقع الاجتماعي والتاريخي والثقافي الذي تتحرك فيه، كما أن الفعل نفسه قد يبدو اقتصاديًا في ظاهره، بينما يخفي خلفه أبعادًا رمزية أو اجتماعية أو ثقافية.

ومن هنا يصبح التأويل ضرورة، لا ترفًا.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتتضح هذه الفكرة بجلاء في كتاب الأستاذ عبد الرحيم العطري «أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية»؛ فالكتاب يعلن منذ البداية أن انشواغله تتحدد أسلسًا في التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية داخل أبنية السوق والتسوق، ويربط هذا التأويل بما انتهى إليه في «النقد المنفتح» في أنثروبولوجيا الحج الإسلامي.

والسوق، في هذا التصور، ليس مجرد فضاء اقتصادي محكوم بثنائية الربح والخسارة، وإنما هو «نص ثقافي ملغز» يحتاج إلى فك شفراته الثقافية والعبور إلى مضمراته الخفية، وهو ما لا يصبح ممكنًا من دون «تأويل خلاق» بالمعنى الذي يمنحه بول ريكور للتأويل.[2]

وهنا تكمن أهمية الانتقال من الاقتصاد إلى الأنثروبولوجيا: فالممارسة الاقتصادية لا تختزل في الحساب والقيمة والتبادل، وإنما تنفتح على المكانة والرمزية والقيم والتفاوض والصراع والتسوية، وعلى ما تمنحه الجماعات والأفراد لممارساتهم من معانٍ ودلالات.

فالكتاب يشتغل على وجوه متعددة للسوق والتسوق: من الاقتصاد الرمزي للتبادل والأسواق الأسبوعية والاقتصاد اللامرئي، إلى الاقتصاد الإثني، والتسوق والعلامات التجارية، والجوطية، وإعادة تدوير المستعمل، والتسوق الرقمي، واقتصاد المنصات، والسوق والمقدس الديني.

وهذا التعدد يكشف أن «الاقتصادي» لا يعيش منفصلًا عن بقية مستويات الحياة الاجتماعية. فالسوق فضاء للتبادل، لكنه في الوقت نفسه فضاء للعلاقات والرموز والقيم والذاكرة والسلطة والذوق والهوية. ومن ثم فإن مقاربته أنثروبولوجيًا تقتضي تجاوز الحدود التي تفصل الاقتصادي عن الاجتماعي والثقافي والرمزي، والنظر إلى هذه المستويات باعتبارها متفاعلة في إنتاج الممارسة ومعناها.

المبحث الثالث: الإثنوغرافيا متعددة المواقع والعمل المكتبي

لا تتجلى قيمة هذا التصور فقط في مستوى التأويل، وإنما كذلك في الطريقة التي يُنتج بها الباحث معطياته.

فمن خلال الاشتغال على العينية وتتبعها في سياقات ومواقع متعددة، يرى العطري في الإثنوغرافيا متعددة المواقع استجابة منهجية للتحديات التي تطرحها أبنية السوق والتسوق في «الهنا والهناك». وتتيح له هذه المقاربة تتبع الوقائع والأشياء والفاعلين، لا بهدف وصف الأماكن المتعددة التي تتقاطع فيها هذه العناصر فقط، وإنما لفهم العلاقات والروابط المعقدة التي تربط هذه المواقع وتساهم في تشكيل المعاني والمباني وتنضيد «النظرة إلى الكون».[3]

وهنا يتحول الانفتاح من موقف معرفي إلى ممارسة منهجية.

فالميدان لم يعد موقعًا ثابتًا ومغلقًا، وإنما أصبح شبكة من المواقع والعلاقات والفاعلين والأشياء. والانتقال بين المواقع لا يستهدف جمع أماكن أكثر، وإنما الكشف عن الروابط التي لا تظهر إلا عندما نتابع الظاهرة عبر أكثر من موقع.

وهذا هو جوهر الإثنوغرافيا متعددة المواقع: أن تتبع الشيء أو الفاعل أو الممارسة في حركتها، وأن تنتقل من المكان بوصفه إطارًا للظاهرة إلى العلاقات التي تصل بين الأمكنة وتعيد تشكيل معانيها.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

غير أن الانفتاح على الميدان لا يعني إقصـــاء العمل المكتبي. ففي كثير من الكتلبات الأنثروبولوجية، يحظى العمل الميداني بمكانة تكاد تجعله المصـــدر الوحيد للمشـــروعية العلمية، لكن الأســـتاذ عبد الرحيم العطري ينبه إلى أن هذه النظرة قد تكون اختزالية بدورها؛ إذ يؤكد أنه، بالرغم من المديح الذي يتلقاه العمل الميداني في العلوم الاجتماعية، «لا ينبغي أن ننسى أن العمل المكتبي لا يقل أهمية عن روح الميدان»، وأنه «اللبنة الأولى في معمار البحث»، ومن دونه تبدو الممارسة الميدانية نفسها «معلقة في الفراغ».[4]

وتكشـــف هذه الفكرة عن جانب آخر من جوانب النقد المنفتح: لا وجود لميدان مكتفٍ بذاته، كما لا وجود لنظرية منفصلة عن الواقع. فالعمل المكتبي يهيئ الأسئلة، ويؤسس للمفاهيم، ويضع الميدان في سياقاته التاريخية والنظرية، بينما يختبر الميدان صلاحية الأسئلة والمفاهيم أمام تعقيد الواقع. وبين الاثنين تتشكل المعرفة.

المبحث الرابع: الانعكاسية المنهجية ومساءلة موقع الباحث

ويكتمل هذا البناء باستحضار مفهوم الانعكاسية المنهجية. فالانفتاح لا ينبغي أن يوجه فقط نحو الموضوع المدروس، وإنما ينبغي أن يشمل أيضًا الذات التي تنتج المعرفة حوله. ولذلك يؤكد الأستاذ عبد الرحيم العطري أن الانعكاسية المنهجية ليست مجرد ترف علمي يُؤدى طلبًا لـــ«الوجاهة العلمية» واستكمالًا لـــ«طقوس العبور المنهجي»، وإنما هي «ضرورة معرفية وقضية وجودية» لتطوير التجربة الميدانية ومساءلة الذات الباحثة.[5]

وهنا يصبح الباحث نفسه جزءًا من السؤال.

ما الذي تراه عيناي؟ وما الذي تختفي رؤيته بسبب الألفة؟ وكيف يؤثر موقعي الاجتماعي في ما أجمعه من معطيات؟

هذه الأسئلة ليست هامشية؛ لأنها تكشف أن المعرفة الإثنوغرافية ليست انعكاسًا محايدًا للواقع، وإنما هي معرفة تنتج داخل علاقة بين الباحث والمبحوث، وبين الموقع والموقع، وبين ما نراه وما لا نراه.

وبذلك يصبح النقد المنفتح نقدًا للموضوع، ولكنه أيضًا نقد لشروط إنتاج المعرفة حول الموضوع.

المبحث الخامس: السرد، التاريخ، التناص الاجتماعي والأنثروبولوجيا.

من أكثر المجالات التي تكشف قيمة هذا الانفتاح العلاقة بين السرد والتاريخ والأنثروبولوجيا. فالسرد، حين يُقرأ خارج حدوده الأدبية الصرفة، يمكن أن يتحول إلى مدخل لفهم المجتمع وذاكرته وتحولاته. والنص الأدبي أو السيرذاتي يمكن أن يحمل، إلى جانب قيمته الجمالية، مادة كثيفة عن أنماط العيش والتمثلات والقيم والعلاقات الاجتماعية وتصـــورات الناس للزمان والمكان.

ومن هذه الزاوية، لا يعود النص مجرد حكاية عن الماضي، وإنما يصبح حاملًا للذاكرة ومجالًا لإعادة بناء التجربة الاجتماعية.

وتبرز هنا أهمية أعمال من قبيل «سـيرة مدينة ل عبد الرحمان منيف عمان في الأربعينات»، حيث تتحول المدينة إلى فضاء للذاكرة، وتتقاطع فيها الأزمنة والتجارب الفردية والجماعية، وتصبح الأمكنة والأشخاص والعادات والطقوس والأشياء جزءًا من قراءة للتاريخ الاجتماعي. فالحكاية قد تحفظ ما لا تحفظه الوثيقة الرسمية، والذاكرة الفردية قد تضـــيء جوانب من التاريخ

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الاجتماعي، وتفاصيل الحياة اليومية قد تكشف ما يغيب عن التاريخ السياسي والمؤسساتي. ومن هنا تكتسب فكرة «التاريخ من الأسفل» أهميتها؛ إذ يصبح ممكنًا الإصغاء إلى أصوات الناس العاديين، وإلى ذاكرتهم وتجاربهم ولأشيائهم وممارساتهم اليومية، بوصفها مداخل لإعادة تركيب الماضي.

وفي هذا السياق يمكن لاستحضار مفهوم «التناص الاجتماعي»، باعتباره أداة تساعد على قراءة الظاهرة الإنسانية بوصفها محللًا تتقاطع داخله خطابات وممارسات وتمثلات متعددة. فالفعل الاجتماعي لا ينتج معناه من داخله فقط، وإنما يحمل آثار تجارب سابقة، وممارسات متوارثة، وقيم وذاكرات وتمثلات جماعية تتفاعل فيما بينها وتعيد إنتاج المعنى باستمرار.

وهكذا يصبح التناص الاجتماعي وجهًا آخر للنقد المنفتح؛ إذ لا يكتفي هذا الأخير بالإقرار بتعدد أبعاد الظاهرة، بل يسعى إلى الكشف عن العلاقات التي تجعل هذه الأبعاد متداخلة ومتشابكة في إنتاج الفعل والمعنى.

المحور الثاني: أنثروبولوجيا القرب في وزان — من النظرية إلى الممارسة

المبحث الأول: من الحنين إلى السؤال

إذا كان النقد المنفتح يطالب الباحث بمقاومة الاختزال، وإذا كانت الانعكاسية المنهجية تجعله واعيًا بموقعه داخل عملية إنتاج المعرفة، فإن أنثروبولوجيا القرب تقدم مجالًا خصبًا لاختبار هذه المبادئ. ربما لا نكتشف الأمكنة التي ننتمي إليها إلا عندما نبتعد عنها قليلًا، ثم نعود إليها بعين مختلفة.

في البدايات، كانت وزان بالنسبة إليّ مدينةً عادية بالمعنى الذي تكون فيه المدن الأولى جزءًا من تفاصيل حياتنا اليومية. مسقط رأس، أحياء وفضاءات وأشخاص وذكريات، وأشياء كثيرة نعيشها دون أن نتوقف طويلًا عند دلالاتها. فالإنسان، حين يكون قريبًا جدًا من المكان، قد لا يرى ما يستحق النظر.

لكن العودة إلى وزان بعد مسار من الدراسة والبحث والاشتغال في العلوم الاجتماعية جعلت العلاقة بالمكان مختلفة. لم تعد المدينة مجرد فضاء للحنين والتذكر، وإنما أصبحت موضوعًا للبحث والسؤال والتأمل. وهنا بدأت أكتشف أن ما كنا نمر عليه في حياتنا اليومية دون اكتراث يمكن أن يتحول، حين ننظر إليه بعين الباحث، إلى مادة أنثروبولوجية غنية.

من هنا جاءت هذه التجربة. ليست حديثًا عن وزان من الخارج، وليست محاولة لتقديم صورة مكتملة عن المدينة، وإنما هي خلاصة أولية لتجربة ميدانية وذاتية انعكاسية، حاولت من خلالها أن أقتلع بعض الموضوعات من قربها الشديد مني، ثم أنغمس فيها من جديد، ولكن هذه المرة بعين الباحث.

العودة إلى المكان ليست دائمًا عودة جغرافية. قد نعود إلى المدينة نفسها، لكننا نعود إليها بأدوات نظر جديدة. فما كان في الماضي مجرد دكان أو ورشة أو سوق أو ساحة أو حرفة أو شخص من أبناء المدينة، أصبح اليوم يثير أسئلة حول الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والذاكرة والتحولات والقيم وأنماط العيش.

ومن هنا تبدأ الأنثروبولوجيا. إنها لا تبحث فقط عن الغريب والبعيد والمختلف، بل يمكنها أن تجعل من القريب جدًا موضوعًا للمعرفة.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لكن أن تدرس القريب ليس أمرًا سهلًا. فالقرب يمنح الباحث معرفة لا يستطيع الغريب امتلاكها بسهولة، لكنه في الوقت نفسه قد يحجبه عن رؤية بعض الأشياء، لأن المألوف غالبًا ما يصبح غير مرئي.

وفي هذا السياق، اختار الباحث حسن رشيق أن يضع للفصل الأول من كتابه عنوانًا معبرًا: L'arroseur arrosé، أو بترجمة أقرب إلى المعنى: «انقلاب السحر على الساحر»، حيث جاء للدور، يقول للباحث، على «الملاحظ كي يكون ملاحظًا»؛ أي إن العلاقة بين الباحث وموضوعه لم تعد علاقة أحادية الاتجاه، يكون فيها المبحوث مجرد موضوع للنظر، وإنما أصبح الباحث نفسه مطالبًا بمساءلة موقعه وطريقة نظره وشروط إنتاج المعرفة. [6]

ويكتسب هذا التحول أهمية خاصة حين يتعلق الأمر بأنثروبولوجيا القرب؛ لأن للباحث لا يدخل إلى ميدان مجهول بالكامل، وإنما يعود إلى فضاء يعرفه، وربما يعرف بعض الفاعلين فيه، الأمر الذي يجعل المسافة المنهجية والانعكاسية ضرورة لا غنى عنها.

وفي سياق الحديث عن تطور الممارسة الأنثروبولوجية، يلفت الأستاذ عبد الرحيم العطري إلى التحول الذي عرفته الممارسة الأنثروبولوجية، بعدما ساد اعتقاد، على الأقل في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، بأن الطريق الوحيد لفهم المجتمع يمر عبر الممارسة الميدانية والانخراط في عالم المبحوثين، بما يجعل الميدان والاحتكاك المباشر بالناس أساسًا لإنتاج المعرفة الأنثروبولوجية. [7]

ولهذا فإن التحدي الحقيقي بالنسبة إليّ كان هو أن أرى وزان التي أعرفها، ولكن كما لو أنني أراها للمرة الأولى.

المبحث الثاني: الحرفة والسوق — تركيب الاقتصادي والاجتماعي والرمزي

من بين الموضوعات التي قادتني إليها هذه العودة موضوع الحرفة. فالدلّالة، مثلًا، لم تكن مجرد فضاء تجاري لبيع الملابس والمنتوجات، بل كانت فضاءً اجتماعيًا تتقاطع داخله علاقات الحرفيين والزبائن، وتتحرك فيه قواعد المهنة وأعرافها وأخلاقياتها.

كان المنتوج يولد داخل الورشة، ثم ينتقل إلى فضاء يعرف فيه الحرفي زبونه، كما يعرف خيطه وإبرته. وكانت عبارة مثل: «الله يجعل فيها البركة» تختصر شيئًا من النظام القيمي الذي كان يرافق عملية البيع. هنا لا تعود الصفقة مجرد تبادل اقتصادي. فهي تحمل معها الثقة، والسمعة والعلاقة الاجتماعية والمعنى.

ومن منظور الأنثروبولوجيا الاقتصادية، يصبح السؤال ليس فقط: كيف ينتج الحرفي؟ وكيف يبيع؟ بل أيضًا: كيف تتشكل القيمة؟ ومن يمنحها؟ وكيف تنتقل من اليد إلى السوق؟

وهنا تكشف تجربتي الميدانية تحولًا لافتًا. فقد انتقل جزء من عرض المنتوج من الورشة والدلّالة إلى وسائط التواصل، وأصبح للصورة والإعلان والقدرة على جذب الانتباه دور متزايد في صناعة القيمة.

وعندما بحثت شخصيًا عن جلباب لزواج ابني، وجدت نفسي أمام هذا التحول لا باعتباري باحثًا فقط، وإنما باعتباري فردًا يعيش تجربة اجتماعية فعلية. لقد رأيت الحرفي في ورشته، ورأيت في المقابل صورة المنتوج في الفضاء الرقمي. وبين الورشة والشاشة ظهرت مسافة جديدة؛ مسافة بين من يصنع المنتوج، ومن يمتلك القدرة على تقديمه وتسويقه وصناعة الانتباه حوله.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وهنا يمكن لستحضار ما يثيره الأستاذ عبد الرحيم العطري في حديثه عن التسوق الرقمي واقتصاد المنصات، حين يتساءل عن معنى السوق الذي لا يقف عند كونه مجرد مكان للتبادل التجاري، بل يحيل باستمرار على فضاء للتفاعل الاجتماعي وتبادل الأخبار وإعادة إنتاج العلاقات، بل وعلى مسرح للطقوس الجماعية. فالسوق الذي خبرناه في «الواقعي»، والذي كان يحتضن حرفيين وتجارًا يعرفهم الزبون شخصيًا، وكانت الثقة تُبنى داخله عبر الزمن والتواصل المباشر، لم يعد هو نفسه بعد انتقاله «من الساحة إلى الشاشة». [8]

وهنا تصبح المسألة أكثر من مجرد انتقال تقني من فضاء إلى آخر؛ إنها تحول في طبيعة الوساطة نفسها، وفي شروط إنتاج الثقة والقيمة والعلاقة بين المنتج والمستهلك. ومن هذا المنظور، تتقاطع تجربتي مع فكرة «الغياب المزدوج» عند عبد الكبير الخطيبي: الحرفي حاضر بيديه في صناعة المنتوج، لكنه قد يكون غائبًا عن الاستفادة الكاملة من القيمة التي يصنعها، وغائبًا كذلك عن اقتصاد الصورة والوساطة الرقمية. إنها ليست مجرد مشكلة تسويق، إنها في تقديري، علامة على تحول أعمق في بنية القيمة داخل المجتمع.

المبحث الثالث: من «البركة» إلى العلامة — الحرفة والدين والاقتصاد

في المجتمع التقليدي، لم تكن القيمة الاقتصادية منفصلة تمامًا عن القيمة الاجتماعية والرمزية. كانت الحرفة مرتبطة بالسمعة، والسمعة مرتبطة بالشخص، والشخص مرتبطًا بجماعة ومكان وتاريخ. وهذا التشابك بين الأبعاد المختلفة للممارسة الحرفية يظهر بوضوح في بعض تفاصيل الحياة اليومية للحرفيين في وزان. ففي دراسته الإثنوغرافية للحرف التقليدية بوزان، يلفت هشام بومداسة إلى طقس صلاة العصر الذي يتزامن مع توقيت إنطلاق عملية بيع الرقعة بسوق الحايك والذي توجد بقلبه الدلالة، كان يجمع عددًا من التجار والحرفيين، من الدرازة والخياطين والدلالين وغيرهم، في فضاء قريب من المسجد الكبير لمولاي عبد الله الشريف، حيث كانت هذه الصلاة، التي تقام مباشرة بعد الأذان الأول وفي ظروف خاصة، تُعرف بـ«صلاة المزروبين» أو المستعجلين، حيث يقرأ هشام بومداسة هذا الطقس باعتباره ممارسة يتحرك داخلها ما هو ديني إلى جانب ما هو عرفي وحميمي واقتصادي واجتماعي وقيمي وثقافي رمزي. [9]

والأهم في هذا المثال أن الحرفيين لا يظهرون هنا باعتبارهم فاعلين اقتصاديين فقط، ولا باعتبارهم جماعة دينية منفصلة عن المعيش اليومي، وإنما باعتبارهم فاعلين يحاولون التوفيق بين نداء السماء ومتطلبات المعيش اليومي. فابتداع هذا الشكل من الصلاة، في هذا السياق الإثنوغرافي، يكشف كيف يمكن للممارسة الدينية أن تدخل في تفاوض عملي مع إيقاع العمل والحرفة والسوق.

وهنا تكتسب الحرفة معناها الأنثروبولوجي الأوسع: إنها ليست مجرد تقنية لإنتاج السلع، وإنما مجال تتقاطع داخله القيم والعلاقات والمعتقدات والإيقاعات الزمنية والاقتصاد والمجتمع.

أما اليوم، فإن جزءًا من هذه القيمة ينتقل تدريجيًا إلى العلامة التجارية والصورة والقدرة على صناعة الانتباه. وهنا تظهر إحدى أهم التحولات التي يمكن أن نقرأ من خلالها ديناميات المجتمعات التقليدية. فالمجتمع لا ينتقل ببساطة من التقليدي إلى الحديث، وإنما يعيد تركيب عناصره القديمة داخل شروط جديدة. الحرفي ما يزال موجودًا، والحرفة ما تزال موجودة، والمنتوج ما يزال موجودًا، لكن العلاقات المحيطة بهذه العناصر تغيرت.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الرابع: من الورشة إلى الشاشة — اقتصاد الانتباه وإعادة إنتاج القيمة

إن قصة الحرفة ليست سوى مدخل لفهم تحولات أوسع تعرفها المدينة. فوزان التي كانت تنتج جزءًا من حياتها الاقتصادية والاجتماعية داخل فضاءات قريبة ومباشرة، أصبحت اليوم تواجه اقتصادًا جديدًا للانتباه والصورة والوساطة. وحتى المدينة نفسها أصبحت موضوعًا للصورة. الساحة، والحي، والحرفة، واللباس، والذاكرة، والموروث، كلها يمكن أن تنتقل من فضاء العيش إلى فضاء العرض. وهنا يبرز سؤال أنثروبولوجي أساسي: ماذا يحدث عندما يتحول ما كان يُعاش إلى ما يُعرض؟ وماذا يحدث عندما يتحول التراث من ممارسة يومية إلى مادة للاستهلاك الثقافي والسياحي؟

إن ما يصفه الأستاذ عبد الرحيم العطري بالانتقال «من الساحة إلى الشاشة» يساعد على فهم هذا التحول؛ فانتقال السوق إلى المجال الرقمي لا يعني فقط تغيير مكان التبادل، وإنما يعيد تشكيل العلاقات التي كانت تمنح السوق معناه الاجتماعي. فحين كانت الثقة تُبنى من خلال المعرفة الشخصية والتواصل المباشر والتجربة المتراكمة، أصبحت الصورة والمنصة والقدرة على الظهور والوصول إلى المستهلك عناصر جديدة في إنتاج القيمة والثقة. [10]

لقد أظهرت بعض الخرجات الميدانية التي أنجزها طلبة ماستر الأنثروبولوجيا والمجتمع والثقافات بمدينة وزان أن عددًا من الممارسات والعادات والقيم المرتبطة بالحياة التقليدية تعرف تحولات عميقة. والمسألة هنا ليست الدفاع عن الماضي ضد الحاضر، ولا الدعوة إلى تجميد المجتمع. فالأنثروبولوجيا لا تنظر إلى الثقافة باعتبارها شيئًا ثابتًا. إنها تحاول أن تفهم كيف تتغير الثقافة، وكيف تعيد الجماعات إنتاج معانيها في شروط جديدة.

ومن هنا يمكن فهم «اقتصاد الشلشة» بوصفه إحدى الصور الجديدة التي يعاد من خلالها تنظيم العلاقة بين الحرفي والمنتوج والمستهلك. فالصورة لم تعد مجرد وسيلة لعرض السلعة، وإنما أصبحت جزءًا من إنتاج قيمتها ومن صناعة الانتباه حولها.

المبحث الخامس: المدينة والذاكرة والتأهيل الحضري

لا تقف دلالة أنثروبولوجيا القرب عند الحرفة والسوق، بل تمتد إلى المدينة نفسها.

فوزان ليست مجرد مجموعة من الأبنية والشوارع والساحات. إنها أيضًا ذاكرة وعلاقات، وانتماء وتجارب وأشياء. وحين تتغير الساحات والفضاءات، لا يتغير الشكل المادي وحده. قد تتغير كذلك الوظائف الاجتماعية للمكان، وأنماط اللقاء والتلاقي والفرجة والعبور.

لقد قادتني العودة إلى وزان إلى التفكير في معنى التأهيل الحضري. فحين تتحول ساحة كانت فضاءً للتلاقي والحلقة والفرجة بوسط المدينة إلى فضاء يغلب عليه الطابع الإسمنتي والوظيفي، فإن المسألة لا تتعلق فقط بالشكل العمراني، وإنما بما يحدث للوظائف الاجتماعية للمكان. وحين تتغير طرق العبور، وتتراجع علاقة الزائر بقلب المدينة، فإننا لا نغير حركة السير فقط، وإنما قد نغير علاقة الإنسان بالمجال.

وهنا يصبح سؤال التنمية مرتبطًا بسؤال آخر: أي مدينة نريد؟

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

قد تكون المشكلة أحيانًا في أننا ننظر إلى التنمية من خلال عدد المشاريع والأوراش والطرق والساحات، بينما ننسى أن المدينة ليست مجرد بنية مادية. المدينة أيضًا علاقات وذاكرة وانتماء واقتصاد محلي وحياة يومية. ولهذا فإن تأهيل المدينة التاريخية لا ينبغي أن يكون مجرد إعادة ترتيب للفضاء، بل ينبغي أن يكون إعادة اكتشاف للمعاني التي يحملها هذا الفضاء.

فالتراث المادي وحده لا يكفي، والتراث اللامادي لا يمكن اختزاله في عروض موسمية أو صور سياحية، كما أن الحرفي لا ينبغي أن يتحول إلى مجرد خلفية جميلة في صورة ترويجية، هناك إنسان وراء التراث، وهناك اقتصاد وراء الحرفة، وهناك ذاكرة وراء المكان، وهذه العناصر مجتمعة هي التي تمنح المدينة شخصيتها.

المبحث السادس: وزان مختبرًا للتركيب الأنثروبولوجي

إذا جمعنا الآن بين المستويين النظري والتطبيقي، أمكننا أن نرى أن «النقد المنفتح» ليس مفهومًا معزولًا، وإنما هو جزء من حركة فكرية ومنهجية متكاملة، فالنقد المنفتح كما طرحه الأستاذ عبد الرحيم العطري يقاوم الاختزال، وكذلك السياقية تربط المعنى بالشروط التي ينتج داخلها، والتأويل يتيح العبور من الظاهر إلى المضمر، والتركيب يعيد وصل ما فصلته التخصصات، والهجنة المعرفية تفتح الحدود بين الحقول، والإثنوغرافيا متعددة المواقع تحول هذا الانفتاح إلى ممارسة ميدانية، بينما تجعل الانعكاسية المنهجية الباحث نفسه موضوعًا للمساءلة. وهذه الفكرة التي تناهض الاختزال وضحها الأستاذ عبد الرحيم العطري في بداية كتابه "السوق والتسوق" في إطار تقديمه المنهجي.

وعندما ننتقل إلى وزان، نجد أن هذه المبادئ يمكن أن تتحول إلى ممارسة فعلية. فالحرفة ليست موضوعًا اقتصاديًا فقط، وإنما هي في الوقت نفسه موضوع اجتماعي، وثقافي، ورمزي، وديني. والسوق ليس فضاءً للتبادل فقط، وإنما فضاء للعلاقات، والثقة، والذاكرة، والهوية. والانتقال من الورشة إلى الشاشة ليس مجرد انتقال تقني، وإنما تحول في طبيعة الوساطة وفي شروط إنتاج القيمة. وهكذا، فإن الورشة والدلّالة والسوق والشاشة لا تظهر باعتبارها أماكن منفصلة، وإنما باعتبارها مواقع داخل شبكة من العلاقات التي يمكن تتبعها لفهم التحولات التي عرفتها الحرفة. وهذا يقرب التجربة من منطق الإثنوغرافيا متعددة المواقع؛ إذ إن الموضوع لا يوجد في موقع واحد، وإنما يتحرك بين مواقع متعددة، وتتغير معانيه بتغير السياقات التي يظهر فيها. كما أن للباحث نفسه لا يبقى خارج هذه العملية. فعندما يصبح للباحث جزءًا من تجربة اجتماعية، كما حدث في تجربة البحث عن جلباب لزواج الابن، فإنه يكتشف أن المسافة بين الباحث والموضوع ليست دائمًا ثابتة. وهنا تصبح الانعكاسية أداة لفهم العلاقة بين المعرفة والتجربة الشخصية.

ومن هذه الزاوية، فإن أنثروبولوجيا القرب ليست أنثروبولوجيا أقل صرامة لأنها تدرس المكان المألوف، وإنما هي أنثروبولوجيا تفرض نوعًا خاصًا من الصرامة: صرامة مساءلة الألفة، وتفكيك ما يبدو بديهيًا، والتمييز بين ما نعرفه لأننا ننتمي إلى المكان، وما نحتاج إلى اكتشافه لأننا ندرسه. وهذا هو بالضبط ما يجعل وزان مجالًا خصبًا للنقد المنفتح.

المبحث السابع: من اقتصاد الندرة إلى اقتصاد الانتباه — إعادة تركيب القديم والجديد

يكشف مثال الحرفة بشكل خاص عن الحاجة إلى هذا التركيب.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فإذا نظرنا إلى الحرفي بوصفه منتجًا اقتصاديًا فقط، فإننا سنفقد جانبًا أساسيًا من حياته الاجتماعية. وإذا نظرنا إليه باعتباره حاملًا لتقاليد دينية فقط، فإننا سنغفل علاقته بالسوق والعمل والزبائن. وإذا نظرنا إلى الحرفة باعتبارها تقنية فقط، فإننا سنغفل الذاكرة والقيم والهوية. أما حين ننظر إليها من خلال تركيب هذه المستويات، فإننا نقترب أكثر من طبيعة الظاهرة.

وتتيح تجربة الحرفة كذلك قراءة التحول من اقتصاد الندرة إلى العلامة والانتباه، ومن السمعة الشخصية إلى الصورة الرقمية، ففي المجتمع الوزاني التقليدي كانت الثقة تُبنى عبر الزمن. كان الحرفي معروفًا، والزبون يعرفه، والمنتوج يحمل أثر اليد والصنعة والسمعة. وكانت كلمات مثل «الله يجعل فيها البركة» تختزل نظامًا من القيم التي تتجاوز الحساب الاقتصادي المباشر. لكن مع انتقال جزء من النشاط إلى الفضاء الرقمي، أصبحت الصورة والظهور والقدرة على الوصول إلى المستهلك عناصر مركزية.

وهنا لا تختفي القيمة القديمة بشكل كامل، وإنما تدخل في تركيب جديد.

الحرفي ما يزال يعتمد على مهارته، لكنه أصبح مطالبًا كذلك بإدارة صورة المنتوج. والمنتوج ما يزال مصنوعًا باليد، لكنه أصبح حاضرًا في فضاء تنافسي تتحدد فيه إمكانية الوصول إلى الزبون بقدرة مختلفة على الظهور.

ومن هنا يمكن فهم التحول من الورشة إلى الشاشة بوصفه تحولًا في الوساطة. ففي السابق كانت الوساطة تقوم أساسًا على المعرفة الشخصية والعلاقات الاجتماعية. أما اليوم فقد أصبحت الصورة والمنصة والقدرة على جذب الانتباه تؤدي أدوارًا متزايدة.

وهذا لا يعني أن الوساطة الجديدة ألغت القديمة، وإنما يعني أنها أعادت تركيبها.

المبحث الثامن: أنثروبولوجيا القرب — من الانتماء إلى السؤال العلمي

ربما تكون أهم خلاصة وصلت إليها من هذه التجربة أن الأنثروبولوجيا لا تبدأ دائمًا من المسافة. أحيانًا تبدأ من العودة.

- أن تعود إلى المكان الذي تعرفه، ثم تسأل نفسك: ماذا كنت لا أراه؟
- أن تعود إلى الأشخاص الذين اعتدت حضورهم، فتكتشف أن وراء سلوكهم اليومي منظومات من القيم والعلاقات والمعاني.
- أن تعود إلى الحرفة، فتكتشف أنها ليست مجرد إنتاج سلعي.
- أن تعود إلى السوق، فتكتشف أنه ليس مجرد فضاء للبيع.
- أن تعود إلى المدينة، فتكتشف أنها ليست مجرد عمران.

هذه هي، في جانب منها، أنثروبولوجيا القرب.

لكنها في الوقت نفسه تضع الباحث أمام مسؤولية كبيرة. فالقرب لا يعني امتلاك الحقيقة، والانتماء لا يمنحنا تلقائيًا حق الحديث باسم المجتمع.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ولهذا فإن ما أقدمه هنا ليس حكمًا نهائيًا على وزان، ولا ادعاءً بالإحاطة بكل تفاصيلها، إنها تجربة محدودة، ومحاولة أولى للإنصات إلى المدينة من الداخل، ربما لهذا السبب أصبحت العودة إلى وزان بالنسبة إليّ أكثر من مجرد حنين، لقد كانت محاولة لاستعادة العلاقة بالمكان، ولكن على نحو مختلف، في البداية كان انتماء عاطفة، ثم أصبح ذاكرة، ثم تحول، مع البحث والدراسة، إلى سؤال، وهنا تكمن قيمة التجربة.

المدينة التي كانت في البداية مسقط الرأس، يمكن أن تصبح في النهاية مختبرًا للذاكرة والتأمل والبحث، ولا يعني ذلك أن الباحث أصبح قادرًا على تفسير المدينة كلها، على العكس، كلما تعمقنا في البحث، اكتشفنا حجم ما لا نعرفه، وكلما اقتربنا من الموضوع، اتسعت الأسئلة، وهذا ربما هو أجمل ما تمنحه لنا الأنثروبولوجيا: أنها لا تقدم لنا المدينة باعتبارها شيئًا مكتملًا، بل تجعلنا نعيد اكتشافها باستمرار.

خاتمة: تعقيد الظاهرة الإنسانية شرطًا لإمكان المعرفة

هكذا، فإن «النقد المنفتح» في المشروع الفكري للأستاذ عبد الرحيم العطري لا يبدو مجرد تقنية في القراءة، ولا مجرد شعار منهجي؛ إنه أقرب إلى موقف معرفي من الإنسان والعالم، يقوم على مقاومة الاختزال، وعلى الاعتراف بأن الظواهر الإنسانية أكثر رحابة من الحدود التي ترسمها لها التفسيرات الجاهزة.

وفي هذا الأفق تتخذ محاولة التركيب معناها الحقيقي: ليست جمعًا للمعارف، بل إعادة وصل لما فصلته التخصصات؛ وليست إلغاءً للاختلاف بين المقاربات، بل تحويلًا لهذا الاختلاف إلى مصدر للغنى.

وتكشف تجربة وزان أن هذا التصور يمكن أن يتحول إلى ممارسة بحثية فعلية. فالحرفة والسوق والمدينة والذاكرة ليست موضوعات منفصلة، وإنما تتقاطع داخل تجربة اجتماعية واحدة. والحرفي لا يمكن فهمه خارج السوق، والسوق لا يمكن فهمه خارج العلاقات، والمدينة لا يمكن فهمها خارج ذاكرتها، والذاكرة لا يمكن فهمها خارج الأشخاص والأشياء والممارسات التي تحملها.

كما أن الانتقال من الورشة إلى الشاشة يكشف أن المجتمعات التقليدية لا تختفي بالضرورة أمام الحداثة والتكنولوجيا، وإنما تدخل في عمليات إعادة تركيب وتفاوض. فالحرفة تستمر، لكن وسائط عرضها وتسويقها تتغير. والسوق يستمر، لكن جزءًا من علاقاته ينتقل إلى المجال الرقمي. والقيمة تستمر، لكن شروط إنتاجها وإظهارها تتبدل.

وهنا تظهر أهمية «اقتصاد الشلشة» بوصفه أحد التعبيرات الجديدة عن هذا التحول؛ فالشلشة لا تعرض المنتوج فقط، وإنما تصبح جزءًا من عملية إنتاج قيمته، ومن صناعة الانتباه حوله، ومن إعادة تشكيل العلاقة بين الحرفي والمستهلك.

وفي المقابل، فإن أنثروبولوجيا القرب تكشف أن الباحث نفسه لا يستطيع أن يقف دائمًا خارج الموضوع. فحين يدرس المدينة التي ينتمي إليها، والحرفة التي يعرفها، والسوق الذي عاش تفاصيله، فإنه يحتاج إلى مسافة انعكاسية تسمح له بتحويل المألوف إلى سؤال.

القرب هنا ليس امتيازًا ولا عائقًا في ذاته؛ إنه وضعية منهجية لها إمكاناتها ومخاطرها.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فالقرب يمنح الباحث معرفة أولية بالعلاقات والأشخاص واللغة والذاكرة، لكنه قد يجعله أيضًا أسيرًا لما يبدو بديهيًا. ومن هنا تصبح مهمة الباحث أن يرى ما يعرفه كما لو أنه يراه للمرة الأولى، وأن يحول الانتماء من عاطفة إلى سؤال علمي.

إن أجمل ما يمكن أن تمنحه لنا الأنثروبولوجيا هو أن تجعلنا نعيد النظر في الأشياء التي كنا نظن أننا نعرفها، وهذا ما حدث لي مع وزان. لقد عدت إليها محمّلًا بذاكرة المكان، لكنني حاولت أن أضيف إليها عين الباحث، اقتربت من الحرفة والسوق والفضاء الحضري والذاكرة والتحولات الاقتصادية والاجتماعية، لا لأقول إنني امتلكت معناها النهائي، وإنما لأفهم كيف تتغير المدينة وكيف يعيد أهلها إنتاج علاقتهم بها.

ولذلك فإن هذا المقال ليس نهاية بحث، وإنما ربما هو بدايته الحقيقية.

فوزان ما تزال تحتاج إلى مزيد من البحث في اقتصادها المحلي، وحرفها، وذاكرتها، وتراثها المادي واللامادي، وتحولاتها الاجتماعية، وعلاقاتها بالمجال، وفي كل تلك التفاصيل الصغيرة التي تبدو عادية في الحياة اليومية، لكنها قد تحمل في داخلها تاريخًا اجتماعيًا كاملًا.

إنها دعوة إلى أن نمارس أنثروبولوجيا القرب، وأن نعيد اكتشاف مدننا من الداخل، وأن ننظر إلى المألوف بعين الباحث.

فربما لا تكون المدينة التي نحبها بحاجة فقط إلى من يحن إليها، بل إلى من ينصت إليها، وينبش في طبقات ذاكرتها، ويفهم تحولات مجتمعها، ثم يعيد طرح السؤال: ماذا يمكن أن تصبح؟

وهنا تلتقي النظرية بالممارسة.

فالنقد المنفتح يدعونا إلى عدم اختزال الظاهرة، وأنثروبولوجيا القرب تدعونا إلى عدم اختزال المكان. والتركيب المعرفي يجعلنا نربط بين ما يبدو متفرقًا، بينما تجعلنا الانعكاسية واعين بأن المعرفة نفسها تُنتج من موقع محدد ومن علاقة محددة.

وبذلك لا تعود وزان مجرد مدينة نعود إليها، وإنما تصبح مجالًا نختبر فيه إمكان معرفة الإنسان من خلال المكان، ومعرفة المكان من خلال الإنسان.

وزان... ليست فقط مدينة نتذكرها، بل مدينة يمكن أن نبحث فيها، ومن خلالها، وفيها عن معنى الإنسان والمكان والتحول.

الإحالات

[1] عبد الرحيم العطري، أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية، فاس: مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، سلسلة إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة، الكتاب رقم 45، الطبعة الأولى، 2026، ص. 26.

[2] المصدر نفسه، صص. 24-25.

[3] المصدر نفسه، ص. 17.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

[4] المصدر نفسه، ص. 19.

[5] المصدر نفسه، ص. 36.

[6] حسن رشيق، القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، تعريب وتقديم حسن طالب، الطبعة الأولى، 2018، ص. 12.

[7] عبد الرحيم العطري، أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية، الكتاب رقم 45، الطبعة الأولى، 2026، ص. 9.

[8] المصدر نفسه، ص. 485.

[9] هشام بومداسة، إثنوغرافيا الدرازة الوزانية: نحو دراسة سوسيوثقافية للتركيبة الاجتماعية للحرف، حكاية حرفة تقليدية، الطبعة الأولى، 2025، ص. 284.

[10] المصدر السابق، ص. 485.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المراجع

- العطري، عبد الرحيم. أنثروبولوجيا السوق والتسوق: التأويل الثقافي للممارسات الاقتصادية. فاس: مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، سلسلة إصدارات مركز ابن خلدون لدراسات الهجرة والمواطنة، الكتاب رقم 45، مطبعة وراقة بلال، الطبعة الأولى، 2026.
- بومداسة، هشام. إثنوغرافيا الدرازة الوزانية: نحو دراسة سوسيوثقافية للتركيبة الاجتماعية للحرف، حكاية حرفة تقليدية.الطبعة الأولى، 2025.
- رشيق، حسن. القريب والبعيد: قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب. تعريب وتقديم حسن طالب، الطبعة الأولى، 2018.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/